حوار الحضارات أم محاولة
لإنقاذ بقايا الحضارات..؟

-١-

قبل أكثر من عشرين عاماً كان المفكر الفرنسي المعروف روجيه غارودي، قد أصدر كتاباً يحمل عنوان "حوار الحضارات". وجرت ترجمته إلى اللغة العربية بسرعة في سلسلة "زدني علماً" ببيروت، وجاء الكتاب مليئاً "بالنوايا الحسنة"، وباقتراحات شبه طوباوية إذ لا يمكن تنفيذ شيء منها إطلاقاً بسبب طبيعة الفعالية الرأسمالية الإمبريالية التي كانت آنذاك مهيمنة –رغم ما كان يظن من أوهام حول ذلك في فترة الحرب الباردة– والتي اشتدت هيمنتها اليوم وتغير أسلوب أدائها نحو مزيد من الوحشية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وظهور التغيرات النوعية التي قدمتها للتكنولوجيا ثورة المعلوماتية وملحقاتها.

في تلك الأيام كان غارودي قد فصل حديثاً من الحزب الشيوعي الفرنسي بعد كتابه "منعطف الاشتراكية الكبير" وأدين ماركسياً كهرطوقي، بعد أن كان يُعدُّ أحد كبار منظري الصف الثاني في الماركسية بعد لينين وغرامشي وسواهما، وكان الرجل قد أخذ يمتلئ مجدداً –وبعيداً عن الدوغما– بالتقاليد الثقافية الفرنسية الإنسانية لما يسمى "عصر الأنوار". وبعد جولة أو جولات في العالم، رأى خلالها شيئاً من المنجزات العظيمة

للحضارات الحية العريقة الكبرى كالعربية والهندية والصينية، أصدر كتابه "حوار الحضارات" انطلاقاً من نزوعاته الجديدة في الفكر، مقترحاً أن تقوم الحضارة الغربية الإمبريالية بمحاورة تلك الحضارات العريقة، التي ظلت عدة قرون "موضوعاً" لفعالية النهب الرأسمالي، بدل أن تظل ساعية إلى تدميرها ونهب ثروات أصحابها... إلى آخره، وكل ذلك من أجل ضمان مصائر أفضل لوجود البشرية على هذا الكوكب.

وأذكر أنني كتبت يومها مراجعة للكتاب نشرتها في صحيفة الثورة، وأشرت فيها إلى أن غارودي يبدو كأنما نسي –أو هو يتناسى– طبيعة الرأسمالية الإمبريالية التي لا بد أن الماركسية قد علمته إياها بصورة شديدة الوضوح، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تساءلت عما أبقته مرحلة الاستعمار المباشر، ثم مرحلة الهيمنة الاقتصادية /العسكرية/ الثقافية الإمبريالية الجديدة من تلك الحضارات ومنجزاتها وأفكارها وفلسفاتها..

في إطار نظرية المركزية الأوروبية، التي أُنجزِت ووُظِّفتْ كغطاء أيديولوجي لعمليات التدمير البربرية لكل ما هو غير أوروبي.

ولا أعتقد أن أطروحات غارودي قد لقيت في حينها ما تستحقه من محاورة صحيحة كان ينبغي أن يجريها التقدميون من الكتاب والمفكرين العرب.. فما كانت تلك الأطروحات لتزيد في نظر أكثريتهم –لا سيما الماركسيين منهم– عن زيادة في هرطقة ذلك الهرطوقي المنفي حديثاً من ملكوت الماركسية السائرة بقوة الجبرية التاريخية إلى انتصارها الذي هو سمة العصر على حد التعبيرات الدوغمائية في تلك الأيام.

-٢-

حين صدر كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد الذي يمكن اعتباره أهم عملية تفكيك معرفية للفكر الغربي الموضوع في خدمة الإمبريالية، وأهم تفكيك لآليات أدائه في تدمير البنى الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية للشعوب المنهوبة صاحبة بقية الحضارات- وهي آليات مزدوجة الفعل عبر إنتاج "الشرقنة" غربياً ثم إعادة إنتاج "التشرقن" ذاتياً، أي قبول التدمير ذاتياً من خلال "الأنتلجنسيا" التي تتبنى تلقائياً صورة الشرقي العاجز غير المبدع.. وفقاً لما أنجزه "الاستشراق" الغربي على مدى قرون- نقول: حين صدر ذلك الكتاب تبين جيداً حجم التشويه الذي لحق بالحضارات غير الأوروبية.

ورغم إيمان إدوار سعيد بأن (عالمنا عالم من المشاركة والثقافات المتقاطعة التي تمتلك علاقاتها ونزاعاتها من الثراء الفتان ما يمتلكه التاريخ الإنساني عينه) كما يقول في كتابه "الثقافة والإمبريالية"، فإنه يرى أن وجوب "فكفكة الاستعمار ومناهضة الإمبريالية" هما أساس ليكون عالمنا كما قال.. وهذه النتيجة هي تحصيل مؤكد لكتابيه المذكورين.

فعن أي "حوار للحضارات" يمكن التحدث إلا باستهداف تلك الفكفكة والمناهضة؟!

-٣-

حين أطلق الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الأب مصطلح "النظام العالمي الجديد" رسمياً قبيل حرب الخليج الثانية، تنبه "المفكرون العرب!" للأمر، وتنادى عدد منهم لعقد ندوة في باريس كان هدفها هو "البحث عن مكان للعرب في إطار هذا

النظام العالمي الجديد"!! ونسي عديدون أفكارهم السابقة عن طبيعة رأس المال وفعاليته الإمبريالية ومستجراتها.. إلى آخره!!

ويشبه هذا "البحث عن مكان" في إطار الهيمنة التدميرية لقادة ذلك "النظام العالمي الجديد!!" ما صار يتحدث به كتاب ومفكرون ومثقفون وصحفيون عرب عن "تعنت نتنياهو" بخصوص عملية "السلام!!" التي بدأت بالاستسلام العرفاتي في أوسلو حيث يقول بيريز عن المباحثات هناك: (كنا كأنما نفاوض أنفسنا) ثم تلا ذلك ما تلاه من الخروقات الصهيونية المعلنة داخل الأوضاع العربية:

من مؤتمر الدار البيضاء إلى مؤتمر الدوحة وما بينهما وما لحق بهما.. كما إنه يشبه –أي ذلك البحث عن مكان– ما يكتب في مختلف الصحف والمجلات العربية المعنية عن (مخاتلة باراك وتردده في إكمال عملية السلام)، بنبرة إدانة خجولة، وتنديد حيي، وعتب غير خفي.. ويتناسى أولئك المثقفون والكتّاب والمفكرون أن "الجهاز المفاهيمي الصهيوني" يشتغل وفق ما هو مخطط بناءً عليه لإقامة الإمبراطورية الشرق أوسطية، وهي مشروحة بدقة ودون لبس في كتاب الشرق الأوسط الجديد لشمعون بيريز– معلم باراك –باعتبارها "مقدمة" لإقامة الإمبراطورية التلمودية العالمية".. وقد لاحقنا ذلك وفصلناه بدقة في كتابنا "رقصة الشيطان– برنامج العمل الصهيوني لنصف القرن القادم" وصدر عن اتحاد الكتاب عام ١٩٩٨ وأول استهدافات البرنامج هو تدمير الهوية القومية العربية وتحويل العرب إلى شراذم من الخدم في الإمبراطورية المتخيلة!.. ورغم كل المفردات العيانية لفعالية الحلف الصهيوني الأميركي الذي يريد رسم مصير العالم بقوة الترسانة العسكرية،

الوحشية والهائلة، يأتي من يحدث الناس عن "حوار الحضارات".. الأخوي بالطبع!!

وحين سمع "المفكرون العرب!"بالعولمة بعد عشر سنوات من طرحها عالمياً كمصطلح يخص المستقبل البشري، راحوا يتبارون في الكلام عنها وعن موقع العرب في إطارها، ونسوا مصطلح "النظام العالمي الجديد" الذي انتهت موضته!.. وطرح صموئيل هنتغنتون، الموظف الصهيوني في البنتاغون، وأستاذ الجامعة أيضاً ، أطروحة "صراع الحضارات" المشهورة، فطرب "مفكرونا!" العرب للأمر حين سمعوا به: لقد وجدوا مع العولمة ما ينوعون "الكلام" فيه.. وهكذا عاد مصطلح "حوار الحضارات" إلى الواجهة حسب الموضة!! فعن أي حوار للحضارات يتحدث "الأوادم" الطيبون؟!

❑❑